أوَّلُ تَدبُّر، الدكتور: نايف الزهراني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد:

فهذه كلمات في ضوابط تدبر القرآن، تعين على فهم هذا المقصد من مقاصد إنزال القرآن الكريم، وحُسن القيام به كما أمر الله تعالى، ونيل ثمراته التي وعدها الله من قام به على ما يجب.

كما أن في إحكام هذه الضوابط – بإذن الله – ما يقي من مزالق بعض المتدبرين في الفهم أو التطبيق، فإن العناية بتدبر القرآن، والقيام به كيفما اتفق، لا تكفي في إصابة الصواب، ونيل الهداية الموعود بهما من تدبر القرآن؛ لأن ذلك موقوف على طريقة بينها القرآن، وفصّلها العلماء بالبيان.

مدخل:

طبيعة التدبر وحقيقته:

التدبر مداره على: الترسل والفكر بأناة.

قال المثقب العبدي:

إذا ما تدبّرت الأمورَ تبيّنَت عيانًا صحيحاتُ الأمورِ وعُورُها

فصحيحات الأمور وعورها لا تتبين **إلا بتمهل وترسل وأناة في الفكر فيها**.

* خِلافُ التدبر

أهل اللغة ذكروا في مقابل التدبر من الألفاظ: الارتجال، والفلتة، والفجأة، والتقحم، والعسف، ونحوها؛ **مما يجمعها التعجل وعدم الأناة والفكر**.

التدبر طريقة لا نتيجة

ترى في كلام العلماء:

تدبرت الآية فتبين لي أن معناها كذا وكذا، وتدبرت الآية فاستنبطت منها كذا وكذا، لكنك لا ترى في كلامهم: **تدبرت الآية فتدبر لي منها كذا وكذا!**

وذلك أن التدبر **طريقة** تتحصل بها المعاني والأحكام وليس **نتيجة** لغيره.

س/ سبب قلة ورود عبارة التدبر في كلام السلف؟

ج/ **أن التدبر طريقة**، وعلوم السف متوجهة إلى **الغايات والحقائق**، وليس من عادتهم تفصيل الطرائق والأساليب.

سبع خطوات لتدبر كامل !

أولًا: التهيئة والتخلية (قبل التدبر):

شرطا حصول التدبر (من أي إنسان)

١- تجرد العقل لمعرفة الحق، وهذا يزيل الكبر والجحود.

٢- تهيؤ القلب لقبول الحق، وهذا يزيل الغفلة والإعراض.

{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)} [ص: ٢٩].

فـ((أولو الألباب)) هم أصحاب العقول المتجردة للحق.

و((المتذكرون)) هم من قبلت قلوبهم الحق.

ويزيد ((المؤمن)) على ذلك صفاتًا ينال بها ما لا يحصى من فوائد معاني القرآن وأحكامه وحقائقه وهداياته وهي:

٣- تعظيم القرآن.

٤- الحب الصادق للقرآن والشوق الدائم لآياته.

٥- الافتقار لهداياته.

فإذا تحلت النفس بهذه الصفات، وتخلت عن أضدادها، فُتح لها باب التدبر، وتأهلت له، قال الزمخشري: ((يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله، والإنصاف من نفسه، ولم يذهب عن الجادة

الموصلة إليه يمينا وشمالا. ومن لم يتدبر فهو كالأعمى الذي سواء عليه جنح الليل الدامس وضحوة النهار الشامس))[1].

الثراء في التدبر

قال ابن تيمية – رحمه الله –: ((**في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان**))[2].

([1]) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٢٤٢).

([2]) مجموع الفتاوى (١٠/ ٨١).

ثانيًا: تصحيح المقاصد (قبل التدبر):

الناس والقرآن

مقاصد الناس من قراءة القرآن وسماعه كثيرة؛ كالحفظ، ونيل الأجر، والتطرب بالصوت الحسن ... وهذه المقاصد ونحوها **لا تفتقر** إلى التدبر في تحصيلها. إنما يراد التدبر لتحقيق اليقين بمعاني القرآن الكريم.

أما بناء **المفاهيم القرآنية** وترسيخ اليقين بها **فلا سبيل إليه إلا بالتدبر**

"وأما كيف يحصل اليقين؟ فبثلاثة أشياء؛ أولها: تدبر القرآن، والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق؛ التي تبين أن حق، والثالث: العمل بموجب العلم". ابن تيمية[٣].

* وقد بين الله أن الظنون هي منتهى علم من يقرأ بلا تدبر فقال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)} [البقرة: ٧٨]. فغاية علم من لا يتدبر **ظنون!**

قال ابن تيمية – رحمه الله –: ((من تدبر القرآن طالبا **للهدى** منه تبين له **طريق الحق**))[٤].

---

(٣) السابق (٣/ ٣٣٠).

(٤) السابق (٣/ ١٣٧).

ثالثًا: تصحيح الوسائل (قبل التدبر):

نحن مع القرآن إما في سماع أو قراءة

السماع أثره عظيم في تحصيل التدبر؛ قال النبي - صلى الله عليه وسلم - عن القرآن: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»[٥].

وأمر الله المؤمنين بكمال الاستماع للقرآن؛ لا بالسماع ولا الاستماع فقط فقال تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)} [الأعراف: ٢٠٤]. وهذا النوع من السماع هو الذي يحصل به التدبر ويتضمن: القصد إلى السماع ((الاستماع)) والتفكر في المسموع دون غيره ((الإنصات)).

أما القراءة؛ فكيفية **أداء القرآن** جاءت في القرآن على ثلاثة صور:

١- القراءة: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)} [النحل: ٩٨]. وفي الحديث: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»[٦].

٢- التلاوة: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ} [الكهف: ٢٧]. وهي أخص من القراءة؛ فهي قراءة يتبعها عمل. قال ابن تيمية: ((تلاوة القرآن تجمع معنى التدبر والاتباع، ومعنى السماع))[٧].

٣- الترتيل: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)} [المزمل: ٤]. قال مجاهد: ((أي: ترسل فيه ترسلا بعضه على إثر بعض، على تؤدة))[٨].

وقال ابن جرير: ((الترتيل في القراءة: الترسل والتثبت))[٩].

---

(٥) البخاري (٥٠٤٩)، ومسلم (٨٠٠).

(٦) مسلم (٨٠٤).

(٧) جامع المسائل (٨/ ٣٨).

(٨) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٦٣).

والذي يتحقق به التدبر من تلك المراتب: **الترتيل** أولًا، ثم **التلاوة**، دون مجرد القراءة.

قال ابن الجزري: ((الترتيل يكون للتدبير والتفكر والاستنباط))[10].

س/ هل الأفضل كثرة قراءة القرآن بلا تدبر، أم قلة قراءته بتدبر؟

ج/ سؤال المفاضلة هذا بين تدبر القرآن وغيره من المقاصد **ينبغي ألا يطرح!**

قال ابن تيمية: ((تعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه))[11].

وقال ابن القيم: ((لَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكر حَتَّى مر بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاجا إِلَيْهَا فِي شِفَاء قلبه كررها وَلَو مائَة مرّة وَلَو لَيْلَة؛ **فقراءة آيَة بتفكر وتفهم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبر وتفهم**، وأنفع للقلب، وأدعى الى حُصُول الايمان، وذوق حلاوة الْقُرْآن، وَهَذِه كَانَت عَادَة السّلف؛ يردد أحدهم الآية إِلَى الصَّباح وَقد ثَبت عَن النَّبِي – صلى الله عليه وسلم – أنه قَامَ بِآيَة يُرَدِّدهَا حَتَّى الصَّباح))[12].

وقال ابن مسعود: ((لا تهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، **وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب**، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة))[13].

---

(9) السابق (١٧/ ٤٤٦).

(10) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٠٩).

(11) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٦).

(12) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

(13) زاد المعاد (١/ ٣٢٩).

وعَن أبي جَمْرَة قَالَ: قلت لِابْنِ عَبَّاس: ((إني سريع الْقِرَاءَة إِنِّي أقرا الْقُرْآن فِي ثَلَاث قَالَ **لأن أقْرَأ سُورَة من الْقُرْآن فِي لَيْلَة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقْرَأ الْقُرْآن كَمَا تقْرَأ**))[14].

(14) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

رابعًا: التفسير أولًا (التحلية):

أصول مهمة في التدبر:

لا تدبر بلا تفسير!

"تحديد المعنى" أول واجب على المتدبر؛ فهو الأساس لما يبنى عليه من المعاني والفوائد والهدايات.

قال ابن جرير الطبري –رحمه الله –: ((**مستحيل أن يأمر الله عبده بتدبر ما هو بمعناه جاهل**))[١٥].

إتقان التدبر والتفسير

قوة العلم بمعنى الآية ((**التفسير**)) يورث قوة ويقينًا فيما يستفاد منها بالتدبر، **ولذلك كان أهل التفسير أحسن الناس تدبرًا**، وهذه ميزة لهذا العلم ليست لغيره من العلوم.

التدبر المردود

أي تدبر أورث إضرارًا بمعنى الآية المراد ((التفسير)) فهو **مردود باطل**؛ لأن التفسير هو الأصل، والمعاني المتدبرة شواهد على صحة ذلك الأصل وثبوته، ولا يصح أن يأتي الشاهد بما يناقض معنى الأصل أو يخالفه.

معاني القرآن وأفهام الناس

لا قيمة لفهم خالف تفسير الآية؛ فحماية معنى الآية المراد منها، أولى من حماية فهم تدبره كائنا من كان منها.

---

(١٥) تفسير الطبري (١/ ٧٦).

التدبر الذي نخشاه

مما يخشى منه في واقع حال جمهرة من المتدبرين: عدم الالتفات إلى معنى الآية الصحيح قبل تدبرها، فيقع التدبر منهم على معان **مظنونة** أو **خاطئة**، وهذا **أخطر** ما يقع فيه من يروم تدبر القرآن.

وفي ذلك من **المحاذير**: القول على الله بغير علم، ونسبة ظنون وأوهام إلى كتاب الله تعالى باسم التدبر!

خامسًا: البناء (تثوير القرآن):

ابن مسعود – رضي الله عنه – أستاذ الباب في **التدبر**.

وابن عباس – رضي الله عنه – أستاذ الباب في **التفسير والاستنباط**.

فالزم من كل منهما ما تحب من العلم.

يقول ابن مسعود – رضي الله عنه –: ((**من أراد العلم فليثور القرآن**))[١٦].

هذه العبارة الموجزة وصف دقيق لفعل التدبر وحقيقته؛ وذلك بـ: **إثارة المعنى، والتنقير عنه، والتفكر فيه من كل وجه.**

التدبر من؟ كيف؟ ماذا؟

جاء الأمر بالتدبر عاما مطلقا في جميع مواضع وروده في القرآن؛ وذلك العموم يشمل:

أنواع المتدبرين: مسلم، منافق، كافر.

طرائق التدبر: كل طريقة علمية أو عقلية توصلك إلى فائدة متصلة بالآية.

مواضع التدبر: القرآن الكريم كاملًا.

(١٦) تفسير سعيد بن منصور (١/ ٧).

أهم أدوات المتدبرين:

القياس على المعنى.

دلالات الألفاظ = العموم والخصوص، المجمل والمبين، المفهوم والمنطوق.

خصائص التراكيب.

فمن أحسن هذه الأبواب الثلاثة فهمًا وتطبيقًا **حار من كثرة ما تثمره من المعاني.**

سادسًا: حماية المعنى المستفاد:

من تمام بناء المعاني وتثويرها بالتدبر: حماية تلك المعاني؛ بوصلها بأصل صحيح يبنى عليه: كالسنة، وأقوال السلف، والقراءات، واللغة، والنظائر.....؛ ونحوها مما تستند إليها المعاني في التفسير؛ ... وذلك يزيدها ثباتًا وتأثيرًا.

كما تتعين حماية تلك المعاني من جهة سلامتها في نفسها، واطرادها وعدم انتقاضها، وذلك مما وجه إليه قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)} [النساء: ٨٢]، فالمعاني المخالفة للشرع أو الواقع مردودة؛ لما فيها من الاختلاف والتناقض، بخلاف المعاني المستفادة بتدبر صحيح، فإنها تنفي الاختلاف عن القرآن من كل وجه.

سابعًا: الأولى من المعاني:

لا حد لما يستفاد بالتدبر من المعاني؛ لأنها بعدد عقول الناس وعلومهم، فاختر من المعاني أولاها بصلاحك، وابن يقينك بتدبرك بنفسك، واستخرج من مفاهيم القرآن منهاج حياتك، قال ابن القيم (ت ٧٥١) مبينًا أثر التدبر في تحقيق ذلك: ((لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه، **فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ... فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب**؛ ولهذا قال ابن مسعود: لاتهذوا القرآن هذا الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة))[١٧].

---

(١٧) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

ومن خير ما يعين على اكتساب تلك العادة في التدبر: إنزال النفس منزلة من نزل عليه القرآن وخوطب به. فإنه لا شيء أصرف للقلب عن التدبر من الانعزال الشعوري عن خطاب القرآن، قال ابن القيم (ت ٧٥١) منبهًا على ذلك: ((ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته -أي القرآن-، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يُعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن))[١٨].

{أمثلة تطبيقية}

م	الآية	المعنى المراد	طريقة التدبر (أدواته)	المعنى المستفاد (نتيجة التدبر)
١	{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ} [المائدة: ١٨].	ادعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، فأكذبهم الله تعالى بأنه عذبهم بذنوبهم.	**دلالة المفهوم:** أبطل الله دعوى اليهود والنصارى أنهم "أحباء الله" بأنه تعالى عذبهم بذنوبهم، ومفهوم المخالفة من ذلك: أن لو أحبهم لما عذبهم.	قال ابن جرير: الحبيب لا يعذب حبيبه. وذكرها ابن كثير عن بعض الشيوخ واستحسنها.
٢	{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [الكهف: ٨٢].	قال الخضر لموسى إن الجدار الذي أصلحه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وتحته كنز لهما من مال	**دلالة التراكيب:** جاء قوله تعالى: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} في سياق التعليل بالوصف، فالخضر فعل تلك	قال ابن سعدي: خدمة الصالحين أو من تعلق بهم أفضل من غيرهم؛ لأنه علل استخراج كنزهما وإقامة

(١٨) مدارج السالكين (١/ ٣٥١).

		أو علم، وكان أبوهما صالحا فحفظه الله لهما بصلاح أبيهما.	الخدمة من إقامة الجدار وإصلاحه لاتصاف والدهم بالصلاح، ومن ثمَّ:	جدارهما بأن أباهما "صالحٌ".
٣	{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)} [المطففين: ١٥].	ما الأمر كما يقول هؤلاء المكذبون؛ أن لهم عند الله زُلفة، بل هم يوم القيامة عن ربهم محجوبون؛ فلا يرونه، ولا يرون شيئًا من كرامته يصل إليهم.	**دلالة المفهوم:** حجب الله المجرمين المكذبين عن رؤيته عقوبة لهم، فمفهوم ذلك:	قول الشافعي: لما حجب الله قومًا بالسخط عليهم، دل على أن قومًا يرونه بالرضا عنهم. ويشهد له قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} [القيامة: ٢٢-٢٣].